بين تفصيح العامية وتعريب الفصحى

بقلم: عبد الكريم بكري

تولي المجتمعات المعاصـــرة أهمية قصـــوى للغة المتداولة فيما بينها تســـتوي في ذلك المجتمعات المتقدمة والنامية ذلك لأن اللغة كاليد، والماء والهواء. لا تســاويها أداة أخرى في تمكين الإنســان من ممارسة حياته، لذلك امتن الله على الإنسان بمنحه هذه الأداة المسيرة لأشياء والأحياء فقال تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: "الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" صدق الله العظيم. ولقد ذهب اليونان مذهبا مغاليا في الاعتزاز بلغتهم والاعتراف بفضلها قال: جالينوس: إن لغة اليونانيين هي أفضــل اللغات لأن ســائر اللغات إنما تشــبه نقيق الضــفادع. واســتجاز اليهود الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية زاعمين أن الملائكة لا يعرفون غيرها ولم تبح اللغة العربية والدفع من شأنها فإنها لا تقف مع نظرة العلماء للغة قديما وحديثا.

وبســـبب انفراد وانزواء الأفراد والجماعات نتيجة لعوامل تاريخية وجغرافية والتفاهم حول مفاهيم وتعابير يفرزها الوضـــع الجديد ينتج ما يعرف بالعامية والفصحى وبسبب من ذلك يتعاظم الشعور بخطر اتساع الشقة بين المستويات اللغوية لما يترتب عنه من سواء اتصال وتباعد فيما بين فئات الشـــعب الواحد، لذلك يحرص أولو الأمر على أن تكون اللغة أداة قادرة على ربط الصـــلة مع مختلف طبقات الشـــعوب، وذلك

يجعلها لغة مبسطة وجامعة معبرة منسجمة مع دورها الأساسي في إقامة جسور التواصل وتوحيد المشاعر الوطنية فيما بين أفراد الشعب الواحد.

وكما شهد هذا العصر تطورا كبيرا في وسائل الإعلام الجماهيرية. فقد شهد أيضا تحولا في النظرة إلى المستويات اللغوية باعتبارها قنوات يتم بواسطتها التأثير في مشاعر الناس وسلوكهم وقناعاتهم، ونحن في عالمنا اللغوي العربي نجد أنفسنا أمام لغة فرضت تقسمها على التاريخ والجغرافيا وأصبحت تربط بين شعوب تعّد بمآت الملايين...

وتعيش على مساحة شاسعة الأطراف تمتد من المحيط إلى الخليج فهي من هذه الناحية عامل توحيد وتلاحم، وهي من أجل ذلك مؤهلة لأن تظل قوام الثقافة المشتركة والتاريخ الجامع لكل هذه الشعوب عبر الحقب والأزمان، ولكنها قبل ذلك لغة القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي تتجلى فيها مظاهر إعجازه وما كان للعربية أن تتمتع بهذا المزايا الروحية والفكرية لو لم تكن لغة القرآن الكريم.

وقد نرى أن أنباء هذه اللغة يشعرون بأنهم يملكون كنزا عز على كثير من الشعوب والطوائف التي تحاول أن تبدع لنفسها جوامع أو الروابط بأية صورة من الصور فكل التجمعات والكيانات التي تقوم هنا وهناك قائمة على أسس متبعة اقتصادية أو عسكرية ولا شيء غير ذلك، وهي عوامل يمكن أن تزول أو تغير الحاجة إليها. إذا لا وجود للغة المشتركة وسيلة التواصل فيما بينها.

ولكن اللغة كائن حي يتطور على السـنة المتكلمين بها فينشـأ عن هذا التطور اختلاف بين لغة عصر وعصر آخر وقد ينشأ عن هذا التطور كما وقع للعربية الفصـحى ميلاد لهجات وأشـكال في التعبير موازية للغة الأصـلية. وإنما لم تتأثر العربية الفصـحى بعوامل البلى وتبدل الأزمنة لارتباطها بالقرآن الكريم منذ ما يزيد عن أربعة عشـر قرنا.

ولكون اللغة العربية حافظة ديوان العرب، فقد كفل الله" الحفظ العربية عندما كتب الحفظ القرآن الكريم قال الله تبارك وتعالى: " إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون" غير أن هذا لا يعني أنا ندعو إلى أن تظل العربية متحجرة في قوالب متصـلبة أو نرميها بالجمود أو التخلف عن مواكبة التطور الذي عرفته البشـرية، إذ سـوف نرى أن جسـور التواصـل والتلاقي لم تنقطع بين الفصـحى والعامية منذ قديم الزمن مما أكسبهما الحياة والنماء ووسائل الدفاع الذاتية حيث أصبح من المسـلم به عند أهل الاختصـاص أن البيئة العربية قبل الإسـلام عاشـت فيها لهجات مختلفة ولكنها سـرعان ما توحدت على أعلى مستوى أي على المستوى الأدبي في لغة قريش التي استأثرت ميادين الأدب شعره وخطابه.

وقد سـاعدها على الظفر بهذه الهيمنة عوامل كثيرة لا مجال لذكرها في هذا المقام ولقد جاء القرآن الكريم ليجسـد هذه الوحدة،وهو كتاب الله الذي لا يتطرق إليه الشـك وما ينبغي أن يناله التعبير أو اللحن، غير أن هذه الوحدة التي نزل بها القرآن لم تلغ لغات البيئات

العربيـة بـل جمعهـا فـي كـل قـائم علـى الجزء فحوى هـذا النص الكريم ألفاظا وتراكيب ممثلة لتلك البيئات اللغوية وهكذا عرفت الساحة اللغوية في العصــر الجاهلي مســتويين من الاســتعمال اللغوي، فهناك لســان يخاطب الناس في حياتهم العامة ويتكلمونه بعفوية مطلقة. وهناك لغة أخرى هي التي تنصـرف إليها كلمة "لغة" عند إطلاقها بعفوية وهي لغة أدب وشـعر لا يؤتاها إلاّ من أدرك نواحي القوة والجمال فيها، نقول هذا لأن منهم لفريقا من دعاة العامية في عصــــرنا من يحول لك أمر اختلاف لغة العامـة عن الفصـــــحى حتى ليظن أننا في حاجـة إلى مترجمين وقواميس مزدوجة عربية / فصـــــحى حتى يفهم لغة أجداده والواقع يقول غير ذلك. فإن وجود لغة عامية بجانب الفصـــــحى ليس بدعا في اللغة العربية وإنما هي ظاهرة موجودة في اللغة الحية الراقية. وذلك لأن جل الدراســــات الاجتماعية في البلدان المتقدمة قد أقامت الدليل على خطأ هذا الافتراض حيث تبين أن مســـــتويات العامية في المجموعات الفرنسـية، والبريطانية وغيرها تختلف باختلاف المسـتويات الاقتصـادية والثقافية ونجاح الطفل في المدارس يكون تبعا لذلك. وعلى أية حال فإن العامية والفصـــــحى ما فتئتا متعايشـــــتين في كل فترات التاريخ. وأن أرقى درجات الفصحى يختلف باختلاف العصور و بقدرات المتمدرسـيين فيها، و بالنسـبة إلى اللغة العربية فإن كثيرا من الكلمات العامية المســـــتعملة الآن ورثناها عن لهجات عربية قديمة من ذلك أنا نســـتعمل " آش و واش" وهي كلمة تفيد الاســـتفهام بمعنى ماذا؟ لأنها منحوتة من أي شـــيء تحولت عن أصــلها لكثرة الاســتعمال. قال ابن

يعيش وهو يفسر هذه الكلمة: "و المراد أي شيء وحذفوها تخفيفا" وفي ذلك يقول ابن خلدون:

و مازالت هذه البلاغة و البيان ديون العرب ومذهبهم لهذا العهد و لا تلتفنّ في ذلك إلى حرفية النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداولتهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد. ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلام من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم و إلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب، لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد بتفاوت موجود في كلامهم لهذا العهد.

ولقد حاول الاستعمار الفرنسي عندنا في الجزائر والمغرب العربي أن يحدث قطيعة في مؤلفات سماها: العربية المستعملة L'ARABE PARLEEضمنها طائفة من النصوص الشعبية والكلمات العامية المبتذلة، وفرض نصوصا أخرى سماها: العربية القديمة L'ARABE CLASSIQUE كما عرفت مواطن في العالم العربي مثل هذه المحاولات الرامية إلى صنع أو اصطناع لغة من أشتات الكلمات العامية. تبناها زعماء يزعمون الغيرة على اللغة العربية من أمثال سلامة موسى في مصر، وأنيس فريحة في لبنان. ولقد ذهب الكيد ببعض المستشرقين إلى حد الدعوة، إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية(إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية) ولكنها محاولات لم يكتب لها النجاح والرواج والدوام، لسبب بسيط،

ووجيه في آن واحد، وهو أن العامية في وضـــعها الراهن عاجزة على استيعاب الآداب الرفيعة. والمعاني العميقة. فهي عبارة عن ثوب البيت عند رفع التكليف كما كان يقول د/زكي مبارك-رحمه الله-. و الدليل على ذلك أن سـعيد عقل أحد المشـيعين لسـيادة العامية كتب مقدمة بالعامية لديوان شـعري بالعامية كذلك لصـاحبه ميشـال طرّاد المطبوع سنة 1947 فماتت المقدمة مع الديوان يوم صدوره.

نخلص من هذا القول بأن هناك لغة واحدة بالمعنى العلمي و الأكاديمي للكلمة هي اللغة الفصـــحى، وأن هناك لغة عامية مرتبطة بالفصـحى، وليسـت مسـتقلة عنها. وإنما هي أداة تعبير تتناسـب مع مواضيع، ومستويات اجتماعية بسيطة.

وما يجب أن نؤيده ونتفق فيه مع دعاة الاعتناء بالعامية هو وجوب تقريب الشـقة بين العامية والفصـحى بكل الوسـائل التثقيفية والبيداغوجية بحيث تتمكن الأولى من أن تقترب من الثانية، فتصـبح مرآة عاكسـة للمسـتوى الثقافي الذي وصـلت إليه الشـعوب العربية بمختلف مسـتوياتها الاجتماعية ولا بأس في أن ندفع بكلمات من الفصحى إلى ميدان التخاطب والتعامل والحوار ومختلف أشكال التعبير الفني لا بأس في أن تخفف هذه الكلمات من بعض الضـوابط و القيود المفروضـة على اللغة الرسـمية ولعل خير مثال تقدمه لصـور التقارب بين العامية والفصـحى هو ما يحدث في بلدنا الجزائر. حيث نلاحظ أن عامية الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية ليست عامية اليوم إذ ماتت فيها كثير من الكلمات الدخيلة، وحلت محلها كلمات عربية فصـيحة نتيجة

لانتشار التعليم وتوسع شبكة الإعلام السمعي والبصري وشيوع كثير من الكلمات والمصطلحات الإدارية والسياسية والاجتماعية التي فرضها واقع الجزائر العربية المستقلة.

يقول توفيق الحكيم وهو يتحدث عن اللغة المناسبة لكتابة مسرحياته ما خلاصة: إن الواقع الذي نلاحظه اليوم أن العامية مقضي عليها بالزوال والفارق بينها وبين الفصحى يضيق يوما بعد يوما، ويكفي أن نستمع إلى فلاحنا أو عاملنا في مجلس الأمة ومجالس الإدارة ليتضح لنا أن لغة الكلام العادي قد ارتفعت إلى مستوى الفصحى فهو مثلا يقول"هذا موضوع يهم جميع الفلاحين" أو الأرباح التي تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال.

فإذا تجاوزنا عن الإبدال الذي وقع للذال في اسم الإشارة، فإن العبارة كلها تصبح صحيحة. وهذا النوع من الرخص و الاختزالات موجود في اللغات الحية عند التخاطب.

ففي الإنجليزية مثلا: I am تنطق I'm و في الفرنسية نجد أن IL NE FAUT PAS FAIRE CE LA تنطق FAUT PAS FAIRE CA.

هذا بيان من أحد رواد كتاب المسرح في العالم العارف بواقع اللغة المتداولة فيه يرى ويلمس كيف بدأت العامية تسعى بخطى حثيثة للالتقاء بالفصحى وأعتقد جازما أن إنشاء أجواء مشبعة بالكلمات الفصيحة في مختلف البيان من شأنه أن يفصح كثيرا من الكلمات في العامية و ذلك بنشر التعليم في كل الأوساط ومن مختلف الأعمار،

وتوفير وسائل التعليم السمعية البصرية واستعمال العربية المبسطة في وسـائل الإعلام لأن السـبب في انحراف الألسـنة وبعدها عن اللغة هو إصـابة الأمة بالأمية إصـابات بالغة. إذ لم يسـتطع العالم العربي إلى الآن القضـاء على هذه الآفة الخطيرة، فقد نشـرت منظمة اليونسـكو إحصـائيات في الأيام الأخيرة أن عدد الأميين في العالم العربي قد بلغ واحدا وسـتين مليونا، عشـر هذا العدد من الأميين هو من نصـيب الجزائر.

وبعد: فلما كانت العلاقة بين الفصـحى والعامية علاقة تواصـل، وتقارب وتفاعل والتقاء في نقاط تماس حيوية في أطراف الأوسـاط الاجتماعية فإن العناية التي ينبغي أن يوليها الباحثون لهذا الموضـوع يجب ألا تقل أهمية عن اهتمام بقضـايا العربية الفصـحى، لأن الجدل الحاصـل بين الفصـحى والعامية هو جدل دلالي معرفي إيديولوجي، وسيميولوجي بين مختلفة الفئات في المجتمع الواحد...

سئل كونفيشيوس حكيم الصين عما سيصنع بادئ ذي بدء. إذا ما تكلف بأمر البلاد فأجاب: إصـلاح اللغة بكل تأكيد. تم سـئل: لماذا؟ فأجاب قائلا: إذ لم تكن اللغة سليمة، فما يقال ليس هو المقصود و إذا كان ما يقال ليس هو المقصود، فما يستحق الإنجاز لن ينجز، وإذا لم ينجز ما يستحق إنجازه فإن الأخلاق والفنون يحل بهما الانحطاط. وإذا ما انحطت الأخلاق والفنون، فالعدالة سـوف تنحرف، وإذا ما انحرفت العدالة فسـوف يقف الناس مضـطربين لا حول لهم، وعلى هذا يجب

التخلي عن الاغتباط في القول. وهذا أمر يتفوق في أهميته على كل أمر.

بهذه الأهمية التي أولاها حكيم الصين للغة منذ وقت مبكر، ينبغي أن ننظر إلى الواقع اللغوي بمختلف مستوياته في بلادنا نظرة علمية وذلك باتخاذ جملة من الخطوات نجملها فيما يلي:

- رصد الاستعمالات اللغوية وطرائق التعبير في المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والأوساط السياسية، والمصالح الإدارية والمجالات الثقافية والفلكلورية.

- القيام بعمليات سبر يشكل قطاعا واسعا من الفئات والشرائح الاجتماعية لمعرفة مدى الاستجابة والفهم والآثار التي تتركها لغة الإعلام والخطب في الأفراد والجماعات.

- إعادة النظر في النصوص اللغوية والأدبية المقررة في المدارس الابتدائية والثانوية واختيار نصوص أدبية واجتماعية للغة راقية ومفهومة منتقاة من آداب أمراء البيان في القديم والحديث ومن الصحافة... وغيرها من المحيط الذي يعايشه التلميذ.

- القيام بمشاريع بحث تعمل على وضع رصيد لغوي متداول ومأخوذ من أصول لغوية فصيحة مشتركة بين مختلف جهات الجزائر. ليكون قاعدة ومصدرا لصياغة تراكيب لغوية مقررة في المدارس الابتدائية.

- وضع معاجم ومراصد لتطور دلالة الكلمات عبر التاريخ ولمعرفة الكلمة الجديدة التي تضاف إلى المعجم العربي.

- نشـــر التعليم في كـل أنحـاء الجزائر في الأريـاف والجبـال والصـــحاري للقضـــاء على الأمية التي تقف عائقا أمام توســـيع دائرة الاتصال والتفاهم والتجاوب لقطاع عريض من هذا الشعب.

العمل على إيجاد مشروع لغوي تشترك في الخبرات العربية وتؤلف فيه الكتب النحوية لمختلف المراحل الدراسية على أن يضطلع بهذه المهمة خبراء في اللغة والتربية والاجتماع اللغوي وعلم النفس اللغوي لكي نكون قواعد اللغة أدوات لتنقل المتعلم بسهولة من التلفظ بالعامية إلى التعبير بالفصحى.